

القدر العربي

جنة العربي

أحب العربي المرأة حبا شديداً لا تدانيه عاطفة أخرى من حيث العمق والعنف ، وأسرف في ذلك إسرافاً عظيماً ، فجعل منها ربحانة لقلبه في دنياه . ونعيماً مقيماً في آخره . ولم يصبُ إلى المجد والسؤدد صبوته إليها . فكانت المرأة الجميلة جنته التي يحلم بها ، ويضتحى من أجلها بكثير من راحتته ، ويستشهد في سبيلها باسماً راضياً ، ويأخذ من أجلها بالزهد أحياناً . فنعيمه عبارة عن عالم وسيع أنيق ، فيه من الطبيعة المعتدلة المناخ أروع مشاهدتها ، وفيه من النساء البارعات الجمال أقصى ما يبلغه خيال الشاعر المبدع . ومن العدل القول إن العربي الذي تمثل جنته آهلة بالخور العين ، الناعسات الطرف ، كأنهن الدر المكنون ، المطهرات العفيفات ، هو رجل بلغ حبه المرأة مبلغاً عظيماً حقاً .

إن لكثائر الجاهلي من عدد النسوة في خيمته أو منزله ، ثم تعدد الزوجات والسراي في الإسلام ، كل هذا مظهر من

مظاهر التدله العنيف. ولعله أيضاً وجه من وجوه التقيد بالأساليب الحضرية التي أخذت بها الأمم الغالبة أيام المصريين والبابليين والآشوريين والفرس والإغريق والرومان. وللعرب بعض العذر في ذلك، لنزول القسم الأكبر منهم في منطقة جغرافية ملتبية الأرض والسماء، تنضج فيها المرأة بسرعة كما تنضج الأثمار النادرة التي تزكو هناك.

الطبيعة سريعة العمل، جمّة النشاط، كما هي العادة في البلدان الحارة، فيقصر الزمن الذي يفرق بين أوائل النضج وأواخره. ويذبل الجمال باكراً لتراوح شباب المرأة بين الخامسة عشرة والثلاثين^(١)، ولتلاشي هذا الشباب بعد ذلك وأخذه بالأفول. فتبدأ الفتنة بالحبو عندئذ، إلى أن تصبح أثراً بعد عين في الأربعين، فتتحول المرأة إلى جدة أو مربية أو قينة من قينات المنزل، تعمل في ترتيبه والسهر على الطعام والنظافة، ويزهد الرجل في محاسنها الزائلة، ويتطلع جاهداً إلى ما يروى ظمأه إلى الجمال، أو يكون قد بدأ بالاستقاء من منابع الحسن قبل ذلك.

كان أفول العرييات الأصل أو المولد بطيئاً بالنسبة إلى الغربيات الأجنبية اللواتي ولدن أو نشأن في البلدان المعتدلة

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٧.

أو الباردة . فإن تهافت هؤلاء كان خاطئاً ، يسرع الذبول إلى بشراتهم الصافية ، ويدب الخمول في مفاصلهم ، ويأخذ العرق بتخديد وجوههم ، وترهل أجسامهم ، فتعنى على قسامهم . ويذبلن ذبول الوردة المقطوعة من منبتها .

حدود الجمال

أحب العرب الجمال مطلقاً ، لأن تذوقهم الحسن ، كتذوقهم الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة ، يتفقت من التخصص ، يحسون بالحلاوة والعدوية واللطافة إحساساً غامضاً لا يقيدده تحديد ، ولا تحصره تخوم . وتختلف أقيستهم باختلاف الأشخاص ، لأن الجمال اعتبار ذاتي أو احساس داخلي فردي ، والعرب كسواهم من الشعوب التي أغرمت بالجمال ، تذوقوه غامضاً غير محدود ، فلم يفسدوا مفاتن الطبيعة بتهاويل الأوزان والألوان والأبعاد . غير أنهم تعارفوا على بعض شروطه ، فجعلوا منها أصولاً عامة ، وألحقوا بها الكثير من الفروع التي تقتضيها الأذواق الفردية .

في كتب الأدب صفحات عديدة عن هذه الأصول والفروع ، فلا يكتمل مصنف منها ما لم يضم بين دفتيه بعضها شعراً أو نثراً ، مقتبساً من أساطين الأدب ، أو منقولاً عن الاختصاصيين

في فنون الجمال الذين خبروه نظرياً وعملياً ، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات .
يؤثرون العبلاء الجسم ، ولا يقبلون على الأجسام الرقيقة النحيلة الخفيفة الوركين ، أو ما يسمونها الزلاء . لأن نحافة الوركين في نظر الخبراء منهم من الصفات المكروهة التي تنقص من أثمان الجوارى ، وتشيع في حب الأزواج لزوجاتهم شيئاً من الفتور . وأحبهم النحيلات الأعلى الجسيمات الأذنى ، أو كما يقولون ، اللواتي أعلاهن قضيب وأسفلهن كتيب ، أو من قال فيهن المغنى إسحق الموصلى :

ظباء كاليغافير كنوس في المقاصير
وأدبرن بأعجاز كأوساط الزنابير (١)

وغالوا في كرهه النحيفات ، حتى استعاذ الشاعر بالله منهن ، فقال :

أعوذ بالله من زلاء فاحشة كأنما نيط ثوباها على عود (٢)
كما أسرفوا في مدح الثقيلات الردف ، حتى بلغوا الإعجاز في ذلك ، وجاءوا بما تأنف منه الأذواق ، ويأخذ المعاصرون على أنه من وجوه الهزل والسخرية . فن غرائب المخلوقات التي

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٣ .

تستحق أن تكون أعجوبة العصور تلك الحارية التي فتن بها صاحبها فقال فيها :

من رأى مثل حبي تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تدخل أردافها غدا (١)

وفي اعتقادنا أن سواد العرب لم يشاطروا شاعرنا هذا في فهمه الجمال وتذوقه هذا اللون العجيب المعجز ، بل كانوا ، كما قدمنا ، يؤثرون العباء (٢) ، ويفضل الجهابذة منهم المجدولة الجسم ، ويقدمونها على سواها ، ويطلب القيانون في هذا النوع الأثمان الباهظة لأنها الزى الشائع المحبب إلى النفوس . والمجدولة من النساء ، في منزلة بين السمينه والمشوقة ، ولا بد أن تكون كاسية العظام والعروق في غير ترهل ، ملساء الجلد بحيث تزلق اليد عنها .

البيضاء المفضلة

أما وقد دخلنا الحدر ، وأقلقنا على العربي راحته ، وأخذنا نتفحص ما في كناسه من ملاحه وحلاوة ، وأدركنا إدراكاً عاماً أية طلعة يفضل صاحبنا ، فلا بأس ، وقد أسأنا إليه في

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) رسائل الجاحظ ٢٧٤ — ٢٧٥ .

مبازله . أن نتفحص هذه المرأة عن كذب ، وتبين تقاسيم
الجمال فيها جزءاً جزءاً وعضواً عضواً تاركين ما لا يسمح لنا
المكان بعرضه وتفصيله .

العربي الأسمر يفضل البيض من الجوارى ، ولا سيما
الرقيمات البشرة . الصافيات اللون ، اللواتي يضرب لونهن بالغداة
إلى الحمرة وبالعشى إلى الصفرة ، وخص السمر والسود
أحياناً بالخدمة والسعى بين المنزل والسوق . والبيض الصفر
اللواتي جن بهن كن كثيرات العدد ، بل هن الغالبات بينهن ،
يخفطن بظل الحدر ، فلا يتعرضن لأشعة الشمس المحرقة التي
تحيلهن إلى السمرة . وليس تهالك النساء على الظل بعيد عنا ،
فقد كن يتهربن من الشمس ، وما تركه في جلودهن من آثار
فضاحة ، ويؤثرن الفئء ، فسراذيب بغداد الظليلة الرطبة كانت
أحب إليهن من الحيوط الذهبية التي تقطرها الشمس خلال
سعف النخيل . وكان لكل منهم شمس تضيء نهاره تهديه طريقه
في مضطرب حياته الكادحة ، وشمس أو شمس يخبئها في
الحدر لتبهر له ليله ، وتشيع في نفسه وجسمه الدفاء . ولا شك
أن الناثر الذي وصف إحداهن قد أجاد في تمثيل ما يجب
العربي عند ما قال : جلد من لؤلؤ رطب ، مع رائحة المسك
الأذفر ، في كل عضو شمس طالعة .

غير أننا نسيء إلى الحقيقة إذا زعمنا أن العرب جميعاً كانوا يفضلون البيض ، فأمهات الفاتحين وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم كن سمراً . تشع في عيونهن آمال المستقبل انطالع ، وأحلام الغد المشرق . ولكن البيض كن بضاعة جديدة ، ولكل جديد بهجة ومقام ، وإخواننا العرب يودون أن تمتزج سمرة الجزيرة بيمق الشمال .

لعل كثيرين قرأوا ما دار بين البيض والسمر من محاورات طريفة في حلقات الأدب أو مجالس المحبون ، حيث يتفنن كل فريق في إظهار فضائله ، وعيوب خصمه . وقد أعجبنا ببراعة العرض ، ودقة الحججة في ذلك الجدل الذي يعنف أحياناً بين الجنس اللطيف في حضرة الخليفة أو الأمير أو المولى ، إلى أن ينتصر أحدهما بنكتة بارعة ، أو بيت من الشعر ، فيكافئ السيد جاريته المنتصرة ببدره من المال ، ويغليب خاطر المنذحة ببدره أخرى . فالمشادة عنيفة بين السمرة والبياض ، وهي خصومة لما تنته ، ولن تنتهي لأنهما لوانان من الجمال ، ليس أحب من أحدهما إلا الآخر .

السوداء المستلطفة

غير أن هناك لوناً ثالثاً من الجمال لا يخطر لنا على بال ،

هو اللون الأسود الذي تسبغه الطبيعة على الزنجيات أو على الأقوام البيض التي طال مكثها في الأقاليم الحارة . فقد فتن كثير من العرب بالسود ، وكان لمن شعراؤهم والمعجبون بهن ، وارتقت بعضهن إلى مكانة رفيعة في المجتمع . وقد قال الشاعر في غانية سوداء :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعده

لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحده^(١)

وهذا المسك والطيب هما من خصائص السود ، فكأن

أجسامهن صيغت منهما وحدهما ، لذلك تردد هذا المعنى

في كل ما نظم فيهن ، منه ما قاله بشار في جاريته :

وغادة سوداء . براءة كالماء في طيب وفي لين

كأنها صيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجون^(٢)

وهذان الشاعران مقتصدان في حب السواد ، لأنهما لا

يزهدان في البياض والسمر ، ولكن المغالاة دفعت آخر إلى

القول :

ومن يك معجباً بينات كسرى فإني معجب بينات حمام^(٣)

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٠ .

وثانياً إلى القول :

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب (١)
 كان لرواج سوقهن ، وإقبال الرجال عليهن . ولغرام الشعراء
 بهن أن أخذن بالتألق ، وعمدن إلى التصنع أسوة بشقيقاتهن
 البيض والسمر . فقلدنهن في كل شيء حتى في الاكتحال ،
 رغم أن الكحل لا يبدو عليهن لسواد بشرتهن ، مما دفع ظريفاً
 من الشعراء إلى القول في إحداهن :

كأنها والكحل في مرودها تكحل عينيها ببعض جلدها (٢)
 وهكذا نرى في سوق الجمال ألواناً وأشكالاً ، ولكل منها
 ميزة خاصة . وطلاب مهالكون ، بل تقرب من الواقع إذا
 قلنا إن كثيراً من الحدود العربية كانت تضم كل هذه الألوان ،
 وما يتشعب منها من بياض ممزوج بالحمرة ، إلى سمرة تقرب
 من البياض ، إلى صفرة سنديّة وصينيّة ومغوليّة . فإن مائدة
 الجمال التي تناول منها العربي غذاءه متسعة الأطراف ، شاسعة
 الأبعاد ، بوسعه أن يأخذ منها ما يروق لذوقه العام ، ولرغبته
 الطارئة . عرف لكل واحدة من هؤلاء النسوة فضلها وسرحلاوتها .
 وشهد ما بينهن من عداوة ، وما في صدورهن من تحاسد وتنافس

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٣ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤١ .

على اكتساب عطفه ، وهو راض بهن جميعاً ، وبما هن عليه من تسابق في إرضائه والنفوز بعطفه . فإن هذا التحاسد كان يدفعهن إلى تحويل كيدهن عنه إلى بعضهن ، وإلى التنافس في إظهار مفاتن جمالهن . وفي كلا الحالين يفوز السيد المولى براحة البال وكمال المتعة .

الليل المنسدل

إن الطباق الذي أغرم به الشعراء في جميع عهودهم ، وسعوا وراءه جهدهم حتى أضلهم أحياناً المعاني السامية ؛ فاكتفوا بالتزواج اللفظي ، هذا الطباق الشعري نجد له أثراً في فهم العربي جمال المرأة . فليس أحب إليه من تلك التي يتلاقى فيها النهار بوضحه ، والليل بقتومته : البشرة البيضاء الناصعة ، والشعر الفاحم . ففي تآلف هذين اللونين وتجاورهما صورة فاتنة تؤلف أروع المشاهد وأحبها إليه . وأفضل ما يشبهه هو انسداد هذا الشعر الفاحم الطويل على الجسم البض . يلف بعضه بغلالته القائمة ، فينصع بياض ما تبقى منه . وتنجلي أمامه الصورة التي مثلها الشاعر بقوله :

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل أسحم



فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم^(١)
وهذا الشعر المنسدل لا يحجب أحياناً صاحبه حسب ، بل
يغزر ويطول ، وتعنى به الماشطات حتى يستر أحياناً حاملته
ومحبها ، كما حدث للشاعر القائل :

نشرت على ذوائباً من شعرها حذر الكواشح والعدو المحنق
فكأننى وكأنها وكأنه صبحان باتا تحت ليل مطبق^(٢)
وتمثيل الشعر بالليل قديم العهد ، يرقى إلى أبعد من الشعر
العربي ، ولا يزال يسيل على أقلام الناظمين إلى الآن ، ومنهم
أحمد شوقي القائل :

« ودخلت في ليلين فرعك والدجى »

ولعله استعار التشبيه واللفظ من القدماء ، بل الأصح القول
استقاه من قول شاعر قصي العهد معروف بابن المنذر ، جاء
فيه :

فأمسيت في ليلين بالشعر والدجى

وشمسين من خمر ونخذ حبيب^(٣)

كان الشعر يصفى ثلاث ذوائب تنسدل على الظهر ، وتسمى

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٩ .

(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

غدائر . وتظور أحياناً حتى تبلغ موطأ القدمين . كما قال الشاعر :
دعت خلاخيلها ذوائبها فجئن من فرقها إلى التقدم (١)
وهو عادة ناعم الملمس بسيط كثر ، تنشق صاحبه في
تسريحه وتطيبه قسماً من وقتها ، وتغالي في ضفره وتذيقه ليبدو
فتنة للناظرين .

الغلاميات

غير أن الجوارى اللاتي عرفهن العهد العباسي ، وجئن بعد
أفول الذوق العربي الخالص ، أخذن بالسطو على هذا الليل
المنسدل تقليماً وتشديباً ، متشبهات بالفتيان : وهن المطمومات
الشعر المسميات بالغلاميات . وتعداهن هذا الزى إلى الحرائر
في قصور الخلفاء والأمراء والقواد ، فأخذت المرأة عهدئذ بقص
الدؤابة إلى مستوى الرقبة ، وعمد الوفرة حول الأذن والعقرب على
الجبين ، أو برسم طرة عليه . وذهب بعضهن إلى رفع شعورهن
ورسم هيئات متعددة ، وجعلن حول رؤوسهن عصاية مزركشة
بالألوان ، وكتبن عليها بالحيوط الذهبية أو الفضية شعراً أو آية
كريمة . وأكثرهن يؤثرن الشعر الغزلي تقرباً من مواليهن ومخالاة
في الفتنة ، وقد رسم أحدهم على عصاية جارية له البيتين التاليين :

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

تمت ! وتم الحسن في وجهها . فكل شيء ما سواها محال
للناس في الشهر هلال وفي وجهها كل صباح هلال
ويجعل بعضهم في عصابات الجوارى دراً ، ينثرونه بأشكال
هندسية أو ينسجون به خطوطاً وحروراً وكلمات . ويجد الشعراء
في مثل هذه العصابات موضوعاً شائقاً للنظم والغزل ، فيرون
مثلاً أن الدر يزدان بالوجه الذي تحته كقول أحدهم :

وإذا الدر زان حسن وجوده كان للدر حسن وجهك زينا (١)
وغالين أحياناً في هذه العصابات المزرکشة المعرشة بالرسوم
والخطوط ، وفي رفع شعورهن تاجاً فوق مفارقهن ، مما أثار
المحافظات . فأعملن السنهن في النقد والتقريع . كتلك الأعرابية
التي دخلت على حمدونة بنت الرشيد ، فلما خرجت سئلت
عنها فقالت : « وما حمدونة . . . والله لقد رأيتها ، وما رأيت
طائلاً . كأن بطنها قربة . وكأن ثديها دبة ، وكأن . . . وكان
وجهها وجه ديك قد نفش عفريته ، يقاتل ديكاً » (٢) .

وأعرابيتنا هذه التي وفادت على حمدونة المترفة الغارقة في فنون
الرخاء والأزياء تمثل أفضل تمثيل المدرسة النسائية المحافظة ،
كما أن ابنة الخليفة الرشيد ترمز إلى المدرسة المتطرفة التي تذهب

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ .

في الغواية والتجديد كل مذهب . ولقد تزوج المتوكل من قرشية هي ريطة بنت العباس بن علي فسألها أن تظم شعرها وتنسبه بالحواري المملوكات فأبت عليه ، فهددها بالطلاق ، فاختارت الفرقة على اتباع الأساليب الدخيلة (١) .

التجميل

عمدت الحواري إلى أساليب اصطناعية متعددة في إظهار جمالهن ، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدّها وإحداث البلج بالإفراج بين الحاجبين ، لأن العرب كانوا يحصون ذلك في شروط الجمال . وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التي تختص بها الحواجب من قرن ، أي اتصال الحاجبين ، وزيب ، أي كثرة الشعر فيهما ، ومعط ، أي تساقط الشعر عن بعض أجزائها ، واستعاضت بعض النسوة دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات ، مما يدل على المستوى الذي بلغه فن التجميل آنذاك بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الحليبات أسرارهن عن قومها ، وأضافت ما تعرفه إلى حيل رفيقاتها وأساليبهن . أما العيون التي استرعت أنظار الشعراء ، وانتباه الاختصاصيين في فنون الجمال فهي الدعجاء ، أي الوسيلة الشديدة السواد ،

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٢ .

القائمة الأهداب بدون كحل ، الصافية الحداقة التي تبدو وكأنها
تغالب النوم في نعاسها الدائم ، أو التي قال عنها أبو نواس :
ضعيفة كر الطرف تحسب أنها

قريبة عهد بالإفاقة من سقم (١)

نغالى إذا شئنا تتبع المرأة فى كل ما كانت تقوم به لإبراز
محاسنها ، ولكننا نظلمها إذا زعمنا أنها أحملت نفسها ، ولم تكن
بإظهار ما لديها فى أفن مطلع وأبهى أسلوب . مما عرفته فرشاة
للأسنان طبيعية تفوق فائدة ونظافة ما نستعمله فى منازلنا ،
وتنهب إلى السواك المأخوذ من الأراك ، فاستخدمته فى تنظيف
أسنانها وإخراج ما علق بينها من بقايا الطعام . ولعل بعضنا
قد ساعدهم الحظ على استعمال هذه الطريقة القديمة العهد
فتبين لهم أن السواك لا يقل نفعاً عن فرشاة المصنوعة من العظم
أو النيلون أو وبر الخنزير . وكان من جراء ذلك أن فن الشعراء
بشجر الأراك الذى تأخذ منه الحبيبة سواكها ، فتمنوا أن يكونوا
واحداً منها ، اللهم ما يتقدم الأسنان . وتناقلوا الأحاديث عنها ،
منها قول الشاعر :

نقل الأراك بأن ريقة ثغره من قهوة مزجت بماء الكوثر (٢)

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٨ .

وقول الآخر :-

أقول لسواك الحبيب لك الحنا بلثم فم ما نائه ثغر عاشق (١)
 أما شروط الحسن في هذه الناحية من المرأة فلا تختلف عنها
 في الوقت الحاضر من رقة الأسنان واستوائها ، أو الشنب كما
 يقولون ، وحسن تنضيدها واتساقها . غير أنهم كانوا يستحبون
 التخليج ، وهو الانفراج القليل بينها من غير تباعد مع المحافظة
 على الحسن والاستواء والبياض وما سلف من الصفات .
 ومن الجمال الزائل الذي لا تأبه له اليوم ، وكان له طلابه
 عهد ذلك ، الحال الذي ينبت في الخد . فقد أحرق كثيراً
 من المهج . وأوحى العديد من المقاطع الشعرية . والشعراء
 سريعو التأثير والالتهاب ، يثورون لأتفه الأمور . لبعض شعيرات
 تظهر في الخد . ومن العدل القول إن بعضهم اهتدى إلى تشبيهات
 لا بأس بها ، وإن كانت بادية التصنع ، كقول أحدهم :
 كأن خديه ديناران قد وزنا وحرر الصيرفي الوزن واحتاطا
 فخف إحداهما عن وزن صاحبه

فحط فوق الذي قد خف قيراطا (٢)

ولسنا نعجب لتحول الأذواق ، فقد رأى بعضهم آنذاك في

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٧٩

الجدري الذى سطا على وجه الحبيبة أثراً من آثار الجمال كقول

شاعرهم :

أيها العائبون وجهاً مليحاً نثر الحسن فيه نبد خدوش
أي أفق بها بغير نجوم أي ثوب زها بغير نقوش (١)